

إحياء
Ihyaee



مسكويه

الخلق⁹



24 مارس 2019

"الخلق"

(الفهرس)

- الخُلُق وتهذيبه، الكمال الإنساني وسبيله
- رأي الرواقيين
- رأي جالينوس
- رأي أرسطو
- أخلاق الأحداث
- . صناعة الأخلاق أفضل الصناعات
- القوة العاملة، والقوة العاملة
- الرتبة العليا والسعادة القصوى
- رأي جالينوس في من يعتقد أن السعادة في اللذة الحسيّة
- مراتب القوى وشرفها
- فائدة التماس الفضيلة، واجتناب النقيصة
- الإنسان، والملك والسبع والخنزير!
- سياسة النفس العاقلة
- فضلُ في تأديب الأحداث والصبيان خاصة
- دستور تهذيب الأطفال
- أدب المطاعم
- أدب الملابس
- أدب المجالس
- التفاوت في تقبل الآثار الشريفة
- ما يشرف به النبات على الجماد
- التدرج في قبول الفضائل
- مراتب الحيوان
- مراتب الأفق الإنساني
- غاية الكمال والسعادة التامة
- خاتمة المقالة الثانية

الخلق وتهذيبه، الكمال الإنساني وسبيله

مقدمة (تعريف الخلق):

الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين:

(I) منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله.

(II) ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه الفكر، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً.

ولهذا اختلف القدماء في الخلق، فقال بعضهم: الخلق خاص بالنفس غير الناطقة، وقال بعضهم: قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ. ثم اختلف الناس أيضاً اختلافاً ثانياً فقال بعضهم: من كان له خلق طبيعي لم يتنقل عنه. وقال آخرون: ليس شيء من الأخلاق طبيعياً للإنسان. ولا نقول أنه غير طبيعي، وذلك إننا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً، وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره ولأننا نشاهده عياناً، ولأن الرأي الأول يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل، وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشناعة جداً.

1. رأي الرواقيين

وأما الرواقيون فظنوا أن الناس كلهم يُخلقون اختياراً بالطبع، ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً بمجالسة أهل الشر، والميل إلى الشهوات الرديئة، التي لا تقمع بالتأديب، فينهمك فيها ثم يتوصل إليها من كل وجه ولا يفكر في الحسن منها والقبيح.

وأما قوم آخرون كانوا قبل هؤلاء فإنهم ظنوا أن الناس خُلِقوا من الطينة السفلى، وهي كدر العالم، فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع، وإنما يصيرون اختياراً بالتأديب والتعليم، إلا أن

فيهم من هو في غاية الشر. لا يصلحه التأديب. وفيهم من ليس هو في غاية الشر فيمكن أن ينتقل من الشر إلى الخير بالتأديب من الصبا، ثم بمجالسة الأخيار وأهل الفضل.

2. رأي جالينوس

فأما جالينوس فإنه رأى أن الناس فيهم من هو خير بالطبع، وفيهم من هو شرير بالطبع، وفيهم من هو متوسط بين هذين، ثم أفسد المذهبين الأولين اللذين ذكرناهما، أما الأول فبأن قال أن كل الناس أخيار بالطبع وإنما ينتقلون إلى الشر بالتعليم، فمن الضرورة أن يكون تعلمهم الشرور إما من أنفسهم وإما من غيرهم، فإن تعلموا من غيرهم فإن المعلمين الذين علموهم الشر أشرار بالطبع، فليس الناس إذاً كلهم أخياراً بالطبع، وإن كانوا تعلموه من أنفسهم، فأما أن يكون فيهم قوة يشقاقون بها إلى الشر فقط، فهم إذاً أشرار بالطبع، وأما أن يكون فيهم مع هذه القوة التي تشقاق إلى الشر قوة أخرى تشقاق إلى الخير، إلا أن القوة التي تشقاق إلى الشر غالباً قاهرة للتي تشقاق إلى الخير وعلى هذا أيضاً يكونون أشراراً بالطبع.

وأما الرأي الثاني فإنه أفسده بمثل هذه الحجة، وذلك أنه قال: إن كان كل الناس أشراراً بالطبع فإما أن يكونوا تعلموا الخير من غيرهم أو من أنفسهم، ونعيد الكلام الأول بعينه. ولما أفسد هذين المذهبين صحح رأي نفسه من الأمور البينة الظاهرة، وذلك أنه ظاهر جداً أن من الناس من هو خير بالطبع وهم قليلون، وليس ينتقل هؤلاء إلى الشر، ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون، وليس ينتقل هؤلاء إلى الخير، ومنهم من هو متوسط بين هؤلاء، قد ينتقلون بمصاحبة الأخيار ومواعظهم إلى الخير، وقد ينتقلون بمقارنة أهل الشر وإغوائهم إلى الشر.

3. رأي أرسطو

وأما أرسطو طاليس فقد بين، في "كتاب الأخلاق" وفي "كتاب المقولات" أيضاً أن الشرير قد ينتقل بالتأديب إلى الخير، ولكن ليس على الإطلاق لأنه يرى أن تكرير المواعظ والتأديب، واخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة لا بد أن يؤثر ضروب التأثير في ضروب الناس، فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة، ومنهم من يقبله ويتحرك إلى الفضيلة بإبطاء. ونحن نؤلف من ذلك قياساً وهو هذا: كل خلق يمكن تغييره ولا شيء مما يمكن تغييره هو بالطبع، فإذاً لا خلق ولا واحد منه بالطبع والمقدمتان صحيحتان، والقياس منتج في الضرب الثاني من الشكل الأول.

أما تصحيح المقدمة الأولى وهي أن كل خلق يمكن تغييره، فقد تكلمنا عليه وأوضحناه وهو بيّن من العيان، ومما استدللنا به من وجوب التأديب ونفعه وتأثيره في الأحداث والصبيان ومن الشرائع الصادقة التي هي سياسة الله لخلقه.

وأما تصحيح المقدمة الثانية وهي أنه لا شيء مما يمكن تغييره هو بالطبع فهو ظاهر أيضاً، وذلك أن لا نروم تغيير شيء مما هو بالطبع أبداً، فإن أحداً لا يروم أن يغير حركة النار التي إلى فوق بأن يعودها الحركة إلى أسفل، ولا أن يعود الحجر حركة العلوّ يروم بذلك أن يغير حركة الطبيعة التي إلى أسفل، ولو رامه ما صح له تغيير شيء من هذا، ولا ما يجري أعني الأمور التي هي بالطبع، فقد صحت المقدمتان وصح التأليف في الشكل الأول، وهو الضرب الثاني منه وصار برهاناً.

4. أخلاق الأحداث

فأما مراتب الناس في قبول هذه الآداب التي سمينها خلقاً، والمسارة إلى تعلمها والحرص عليها فإنها كثيرة، وهي تشاهد وتعاين فيهم، وخاصة في الأطفال؛ فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ولا يسترونها بروية ولا فكر، كما يفعل الرجل التام الذي انتهى في نشئه وكماله إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه، فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة.

أما في طبعه، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الآداب أو نفورهم عنه، أو ما يظهر في بعضهم من القحة وفي بعضهم من الحياء، وكذلك ما نرى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده. ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به من مراتب الإنسان في قبول الأخلاق الفاضلة، وتعلم معه أنهم ليسوا على رتبة واحدة، وأن فيهم المتواني والسهل السلس والفظ العسر، والخير والشرير والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب لا تحصى كثرة، وإذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم، نشأ كل إنسان على سُوم طباعه وبقي عمره كله على الحال التي كان عليها في الطفولية، وتبع ما وافقه في الطبع: إما الغضب وإما اللذة وإما الزعازة (سوء الخلق)، وإما الشره، وإما غير ذلك من الطباع المذمومة.

والشريعة هي التي تقوّم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل، والبلوغ إلى السعادة الإنسيّة بالفكر الصحيح والقياس المستقيم. وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات من الضرب، إذا

دعت إليه الحاجة أو التوبيخات إن صدتهم، أو الأطماع في الكرامات أو غيرها مما يميلون إليه من الراحة، أو يحذرونه من العقوبات، حتى إذا تعوّدوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمن كثيرة أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليداً، وينبهوا على طرق الفضائل واكتسابها والبلوغ إلى غاياتهم بهذه الصناعة التي نحن بسببها والله الموفق.

وللإنسان في ترتيب هذه الآداب وسياقها أولاً أولاً إلى الكمال الأخير طريق طبيعي يتشبه فيها بفعل الطبيعة، وهو أن ينظر إلى هذه القوى التي تحدث فينا أسبق إلينا وجوداً، فيبدأ بتقويمها ثم بما يليها على النظام الطبيعي، وهو بين ظاهر وذلك أن أول ما يحدث فينا هو الشيء العام للحيوان والنبات كله، ثم لا يزال يختص بشيء، شيء يتميز به عن نوع نوع، إلى أن يصير إلى الإنسانية، فلذلك يجب أن نبدأ بالشوق الذي يحصل فينا للغذاء فنقومه، ثم بالشوق الذي يحصل فينا إلى الغضب ومحبة الكرامة فنقومه، ثم بآخرها الشوق الذي يحصل فينا إلى المعارف والعلوم فنقومه، وهذا الترتيب الذي قلنا أنه طبيعي إنما حكمنا فيه بذلك لما يظهر فينا منذ أول نشوئنا، أعني أن نكون أولاً أجنة ثم أطفالاً ثم ناساً كاملين، وتحدث فينا هذه القوى مرتبة.

5. صناعة الأخلاق أفضل الصناعات

فأما أنّ هذه الصناعة هي أفضل الصناعات كلّها، أعني صناعة الأخلاق التي تعني بتجويد أفعال الإنسان بما هو إنسان فيتبين مما أقول:

لما كان الجوهر الإنساني فعل خاص لا يشاركه فيه شيء من موجودات العالم كما بيناه في ما تقدم، وكان الإنسان أشرف موجودات عالماً، ثم لم تصدر عنه أفعال بحسب جوهره، وشبهناه بالفرس الذي إذا لم تصدر عنه أفعال الفرس على التمام استعمل مكان الجمار بالإكاف، وكان وجوده أروح له من عدمه، وجب أن تكون الصناعة التي تعني بتجويد أفعال الإنسان حتى تصدر عنه أفعاله كلّها تامّة كاملة بحسب جوهره، ورفعته عن رتبة الأخس التي يستحق بها المقمت من الله، والقرار في العذاب الأليم أشرف الصناعات كلّها وأكرمها. وأما سائر الصناعات الأخرى، فمراتبها من الشرب بحسب مراتب جوهر الشيء الذي تستصلحه.

وهذا ظاهر جداً من تصفح الصناعات لأن فيها الدباغة التي تعني باستصلاح جلود البهائم الميتة، وفيها صناعة الطب والعلاج التي تعني باستصلاح الجواهر الشريفة الكريمة، وهكذا الهمم المتفاوتة التي ينصرف بعضها إلى العلوم الدنيئة، وبعضها إلى العلوم

الشريفة، وإذا كانت جواهر الموجودات متفاوتة في الشرف في الجماد والنبات والحيوان، أما في الحيوان فكجواهر الديدان والحشرات إذا قيس إلى جوهر الإنسان، وأما في جواهر الموجودات الأخر فظاهر لمن أراد أن يحصيها فالصناعة والهمة التي تصرف إلى أشرفها أشرف من الصناعة والهمة التي تصرف في الأدون منها.

ويجب أن يعلم أن اسم الإنسان، وإن كان يقع على أفضلهم وعلى أدونهم. فإن بين هذين الطرفين أكثر مما بين كل متضادين من البعد. وإن رسول الله ﷺ قال: " لَيْسَ شَيْءٌ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ مِثْلِهِ إِلَّا الْإِنْسَانُ".

وقال ﷺ: " النَّاسُ كَابِلِ مَائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحَةً وَاحِدَةً".

وقال: "الناس كأسنان المشط"، وفي بعضها: كأسنان الحمار، وإنما يتفاضلون بالعقل، ولا خير في صحبة من لا يعرف لك من الفضل ما تعرف له، وفي نظائر هذه السنن (الأشياء) كثيرة تدل على هذا المعنى]. وإن الشاعر الذي قال:

وَلَمْ أَرِ أَمْثَالَ الرَّجَالِ تَفَاوُتًا (لَدَى) إِلَى الْمَجْدِ حَتَّى عَدَّ أَلْفَ بَوَاحِدٍ.

وإن كان عنده أنه قد بلغ فإنه قد قصر، والخبر المروي عن النبي ﷺ: " إِنْ بَلَغَ الْإِنْسَانَ وَجَدَ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْجَوَاهِرِ بِأَمْتِي فَرَجَحَتْ بِهِمْ" أصدق وأوضح، وليس هذا في الإنسان وحده بل في كثير من الجواهر الأخر، وإن كان في الإنسان أكثر وأشد تفاوتاً، فإن بين السيف المعروف بالصمصام، وبين السيف المعروف بالكهام تفاوتاً عظيماً. وكذلك الحال في التفاوت الذي بين الفرس الكريم وبين البرزون المقرف فمن أمكنه أن يرقى بالصناعة أدون هذه الجواهر مرتبة إلى أعلاها، فأشرف به وبصناعته ما أكرمه وأكرمها.

فأما الإنسان من بين هذه الجواهر فهو مستعد بضروب من الاستعدادات لضروب من المقامات، وليس ينبغي أن يكون الطمع في استصلاحه على مرتبة واحدة. وهذا شيء يتبين في ما بعد بمشيئة الله وعونه، إلا أن الذي ينبغي أن يعلم الآن أن وجود الجوهر الإنساني متعلق بقدرة فاعله وخالقه، تبارك وتقدس اسمه تعالى، فأما تجويد جوهره فمفوض إلى الإنسان، وهو معلق بإرادته. فأعرف هذه الجملة إلى أن تلخص في موضعها، إن شاء الله تعالى، وقد تقدمنا في صدر هذا الكتاب، قلنا: ينبغي أن نعرف نفوسنا ما هي ولأي شيء هي، ثم قلنا: إن لكل جوهر موجود كمالاً خاصاً به وفعلاً لا يشاركه فيه غيره، من حيث هو ذلك الشيء، وقد بينا ذلك غاية البيان في الرسالة المسعدة (كتاب فوز السعادة أو الرسالة المسعدة)، وإذا كان ذلك محفوظاً فنحن مضطرون إلى أن نعرف

الكمال الخاص بالإنسان والفعل الذي يشاركه فيه غيره من حيث هو إنسان، لنحرص على طلبه وتحصيله ونجتهد في البلوغ إلى غايته ونهايته.

ولما كان الإنسان مركباً لم يَجُزْ أن يكون كماله وفعله الخاص به كمال بسائطه وأفعالها الخاصة بها، وإلا كان وجود المركب باطلاً كالحال في الخاتم والسرير، فإذا له فعل خاص به من حيث هو مركب وإنسان لا يشاركه فيه شيء من الموجودات الأخرى، فأفضل الناس أقدروهم على إظهار فعله الخاص، وألزمهم له من غير تلون فيه ولا إخلال به في وقت دون وقت، وإذا عرف الأفضل فقد عرف الأنقص على اعتبار الضد.

6. القوّة العاملة، والقوّة العاملة

فالكمال الخاص بالإنسان كمالان، وذلك أن له قوتين إحداهما "العالمة"، والأخرى "العاملة"، فلذلك يشترك بإحدى القوتين إلى المعارف والعلوم، وبالأخرى إلى نظم الأمور وترتيبها، وهذان الكمالان هما اللذان نص عليهما الفلاسفة فقالوا: الفلسفة تنقسم إلى قسمين: الجزء النظري والجزء العملي، فإذا أكمل الإنسان الجزء العملي والجزء النظري فقد سعد السعادة التامة.

أما كماله الأول بإحدى قوتيّه، أعني "العالمة"، وهي التي يشترك بها إلى العلوم، فهو أن يصبر في العلم بحيث يصدق نظره وتصح بصيرته وتستقيم رويته، فلا يغلط في اعتقاد ولا يشك في حقيقة، وينتهي في العلم بأمور الموجودات على الترتب إلى العلم الإلهي الذي هو آخر مرتبة العلوم، ويثق به ويسكن إليه ويطمئن قلبه، وتذهب حيرته وينجلي له المطلوب الأخير حتى يتحد به، وهذا الكمال قد بينا الطريق إليه وأوضحنا سبله في كتب آخر (الفوز الأصغر في طبيعة النفس، ترتيب السعادات ومنازل العلوم).

وأما الكمال الثاني الذي يكون بالقوة الأخرى، أعني القوة "العاملة"، فهو الذي نقصده في كتابنا هذا، وهو الكمال الخلقى ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها، حتى لا تتغالب وحتى تتسالم هذه القوى فيه، وتصدر أفعاله كلها بحسب قوته المميزة منتظمة مرتبة، كما ينبغي وينتهي إلى التدبير المدني الذي يرتب الأفعال والقوى بين الناس، حتى تنتظم إلى ذلك الانتظام ويسعدوا سعادة مشتركة، كما كان ذلك في الشخص الواحد.

فإذا الكمال الأول النظري منزلته منزلة الصورة، والكمال الثاني العملي منزلته منزلة المادة، وليس يتم أحدهما إلا بالآخر لأن العلم مبدأ والعمل تمام، والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً، والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً، وهذا الكمال هو الذي سميناه غرضاً، وذلك

أن الغرض والكمال بالذات هما شيء واحد، وإنما يختلفان بالإضافة، فإذا نظر إليه وهو بعد في النفس ولم يخرج إلى الفعل فهو غرض، فإذا خرج إلى الفعل وتم فهو كمال. وكذلك الحال في كل شيء لأن البيت إذا كان متصوراً للباني، وكان عالماً بأجزائه وتركيبه وسائر أحواله كان غرضاً، فإذا أخرجته إلى الفعل وتممه كان كمالاً.

فقد صحَّ من جميع ما قدمناه أن الإنسان يصير إلى كماله. ويصدر عنه فعله الخاص به إذا علم الموجودات كلها، أي يعلم كلياتها وحدودها التي هي ذواتها لا أغراضها، وخواصها التي تصيرها بلا نهاية؛ فإنك إذا علمت كليات الموجودات فقد علمت جزئياتها بنحو ما، لأن الجزئيات لا تخرج عن كلياتها. فإذا كملت هذا الكمال فتممه بالفعل المنظوم، ورتب القوى والملكات التي فيك ترتيباً علمياً كما سبق علمك به، فإذا انتهيت إلى هذه الرتب فقد صرت عالماً وحدك، واستحقت أن تسمى عالماً صغيراً لأن صور الموجودات كلها قد حصلت في ذاتك، فصرت أنت هي بنحو ما، ثم نظمتها بأفعالك على نحو استطاعتك، فصرت فيها خليفة لمولاك. خالق الكل جلت عظمتها، فلم تخطئ فيها ولم تخرج عن نظامه الأول الحكمي، فتصير حينئذ عالماً تاماً.

7. الرتبة العليا والسعادة القصوى

والتام من الموجودات هو الدائم الوجود، والدائم الوجود هو الباقي بقاءً سرمدياً، فلا يفوتك حينئذ شيء من النعيم المقيم، لأنك بهذا الكمال مستعد لقبول الفيض من المولى دائماً أبداً. وقد قربت منه القرب الذي لا يجوز أن يحول بينك وبينه حجاب. وهذه هي الرتبة العليا والسعادة القصوى. ولولا أن الشخص الواحد من أشخاص الناس يمكنه تحصيل هذه المنزلة في ذاته. وتكميل صورته بها وإتمام نقصانه بالترقي إليها، لكان سبيله سبيل أشخاص الحيوانات الأخر، أو كسبيل أشخاص النبات في مصيرها إلى الفناء والإستحالة التي تلحقها، والنقصانات التي لا سبيل إلى تمامها، ولاستحالة فيه البقاء الأبدي والنعيم السرمدي والمصير إلى ربه، ودخول جنّته. ومن لا يتصور هذه الحالة ولا ينتهي إلى علمها من المتوسطين، في العلم يقع له شكوك فيظن أن الإنسان إذا انتقض تركيبه الجسماني بطل وتلاشى، كالحال في الحيوانات الأخر وفي النبات، فحينئذ يستحق اسم الإلحاد ويخرج عن سمة الحكمة وسنة الشريعة.

وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته هما "الذات الحسية"، وأنها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى، وظنوا أن جميع قواه الأخر إنما ركبت فيه من أجل هذه الذات والتوصل إليها، وأن النفس الشريفة التي سمينها ناطقة إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال

ويميزها، ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هي حصولها له على النهاية والغاية، وظنوا أيضاً أن قوى النفس الناطقة، أعني "الذكر" و"الحفظ" و"الروية" كلها تتراد لتلك الغاية.

قالوا: وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذة التي كانت حصلت له بالمطاعم والمشارب والمناكح اشتاق إليها، وأحب معاودتها فقد صارت منفعة الذكر والحفظ إنما هي اللذة وتحصيلها، ولأجل هذه الظنون التي وقعت لهم جعلوا النفس المميّزة الشريفة كالعبد المهين، كالأجير المستعمل في خدمة النفس الشهوية في المآكل والمشارب والمناكح، وترتبها لها وتعدّها أعداداً كاملاً موافقاً. وهذا هو رأي الجمهور من العامة والرعاع وجهال الناس والسقاط، وإلى هذه الخيرات التي جعلوها غاياتهم تشوقوا عند ذكر الجنة والقرب من برائهم عزّ وجل، وهي التي يسألونها ربهم تبارك وتعالى في دعواتهم وصلواتهم، وإذا دخلوا بالعبادات وتركوا الدنيا وزهدوا فيها، فإنما ذاك منهم على سبيل المتجر والمرابحة في هذه بعينها، كأنهم تركوا قليلها ليصلوا إلى كثيرها، وأعرضوا عن الفانيات منها ليلبغوا إلى الباقيات، ألا إنك تجدهم مع هذا الاعتقاد وهذه الأفعال إذ ذكر عندهم الملائكة، والخلق الأعلى الأشرف، وما نزههم الله عنه من هذه القاذورات، عدوا بالجملة أنهم أقرب إلى الله تعالى وأعلى رتبة من الناس، وأنهم غير محتاجين إلى شيء من حاجات البشر، بل يعلمون أن خالقهم، وخالق كل شيء الذي تولى إبداع الكل، وهو منزّه عن هذه الأشياء متعال عنها غير موصوف باللذة والتمتع مع التمكن من إيجادها، وأن الناس يشاركون في هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان، وإنما ينافسون الملائكة بالعقل والتميز ثم يجمعون بين هذا الاعتقاد والاعتقاد الأول.

وهذا هو العجب العجيب: وذلك أنهم يرون عياناً ضرورتهم بالأذى الذي يلحقهم بالجوع والعري وضروب النقص، وحاجاتهم إلى مداواتها بما يدفعها عنهم، فإذا زالت آثارها وعادوا إلى حال السلامة منها التذوا بذلك، ووجدوا للراحة لذة ولا يشعرون أنهم إذا اشتاقوا إلى لذة المآكل فقد اشتاقوا أولاً إلى ألم الجوع، وذلك أنهم إن لم يؤلموا بالجوع لم يلتذوا بالأكل. وهكذا الحال في سائر اللذات الأخر، إلا أن هذا الحال في بعضها أظهر منها في بعض.

وسنتكلم على أن صورة الجميع واحدة، وأن اللذات كلّها إنما تحصل للملتذ بعد آلام تلحقه، لأن اللذة هي راحة من ألم. وإن كل لذة حسية إنما هي خلاص من ألم أو أذى في غير هذا الموضع. وسيظهر عند ذلك أن من رضي لنفسه بتحصيل اللذة البدنية، وجعلها غايته وأقصى سعادته، فقد رضي بأخس العبودية لأخس الموالي، لأنه يصير نفسه الكريمة

التي يناسب بها الملائكة عبداً للنفس الدنيئة التي يناسب بها الخنازير والخنافس والديدان
وخسائس الحيوانات التي تشاركه في هذا الحال.

8. رأي جالينوس في من يعتقد أن السعادة في اللذة الحسية

وقد تعجّب جالينوس في كتابه الذي سماه "بأخلاق النفس" من هذا الرأي، وكثر
استجهاله للقوم الذين هذه مرتبتهم من العقل، إلا أنه قال:

"إن هؤلاء الخبثاء الذين سيرتهم أسوأ السيرة وأردؤها، إذا وجدوا إنساناً هذا رأيه ومذهبه،
نصروه ونوهوا به ودعوا اليه، ليوهموا بذلك أنهم غير منفردين بهذه الطريقة، لأنهم
يظنون أنهم متى وصف أهل الفضل والنبل من الناس بمثل ما هم عليه، كان ذلك عذراً
لهم وتمويهاً على قوم آخرين في مثل طريقتهم. وهؤلاء هم الذين يفسدون الأحداث
بإيهاهم أن الفضيلة هي ما تدعوهم إليه طبيعة البدن من الملاذ، وأن تلك الفضائل الأخر
الملكية إما أن تكون باطلة ليست بشيء البتة، وإما أن تكون غير ممكنة لأحد من الناس.
والناس مائلون بالطبع الجسداني إلى الشهوات فيكثر أتباعهم وتقل الفضلاء فيهم".

وإذا تنبه الواحد بعد الواحد منهم إلى هذه اللذات إنما هي لضرورة الجسد، وإن بدنه
مركب من الطبائع المتضادة، أعني الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، وإنه إنما يعالج
بالمأكّل والمشرب أمراضاً تحدث به عند الانحلال، لحفظ تركيبه على حالة واحدة أبداً
ما أمكن ذلك فيه، وإن علاج المرض ليس بسعادة تامة، والراحة من الألم ليست بغاية
مطلوبة ولا خير محض، وإن السعيد التام هو من لا يعرض له مرض البتة، وعرف مع ذلك
أيضاً أن الملائكة الأبرار الذين اصطفاهم الله بقربه لا تلحقهم هذه الآلام، فلا يحتاجون
إلى مداواتها بالأكل والشرب وأن الله تعالى منزّه متعال عن هذه الأوصاف، عارضوه بأن
بعض البشر أشرف من الملائكة، وإن الله تعالى أجلّ من أن يذكر مع الخلق، وشاغبوه
وسفها رأيه وأوقعوا له شبيهاً باطلاً، حتى يشك في صحة ما تنبه إليه وأرشده عقله إليه.
والعجب الذي لا ينقضي هو أنهم مع رأيهم هذا، إذا وجدوا واحداً من الناس قد ترك
طريقتهم التي يميلون إليها واستهان باللذة والتمتع وصام وطوى واقتصر على ما أنبتت
الأرض، عظموه وكثر تعجبهم منه وأهلوه للمراتب العظيمة، وزعموا أنه ولي الله ووصفيه،
وأنه شبيه بالملك، وأنه أرفع طبقة من البشر، ويخضعون له ويدلون غاية الذل، ويعدون
أنفسهم أشقياء بالإضافة إليه. والسبب في ذلك هو أنهم، وإن كانوا من أفن الرأي وسفاهته
على ما ترى، فإن فيهم من تلك القوة الأخرى الكريمة المميزة وإن كانت ضعيفة ما يريهم
فضيلة ذوي الفضائل، فيضطرون إلى إكرامهم وتعظيمهم.

9. مراتب القوى وشرفها

وإذا كانت القوى ثلاثاً كما قلنا مراراً، فأدونها: "النفس البهيمية" وأوسطها: "النفس السَّبْعِيَّةُ" وأشرفها: "النفس الناطقة".

والإنسان إنما صار إنساناً بأفضل هذه النفوس، أعني الناطقة، وبها شارك الملائكة وبها باين البهائم. فأشرف الناس من كان حظه من هذه النفس أكثر، وانصرافه إليها أتم وأوفر، ومن غلبت عليه إحدى النفسين الأخريين انحط عن مرتبة الإنسانية، بحسب غلبة تلك النفس عليه، فانظر رحمك الله أين تضع نفسك وأين تحب أن تنزل من المنازل التي رتبها الله تعالى للموجودات، فإن هذا أمر موكول اليك، ومردود إلى اختيارك، فإن شئت فانزل في منازل البهائم، فإنك تكون منهم، وإن شئت فانزل في منازل السباع وإن شئت فانزل في منازل الملائكة، وكن منهم.

وفي كل واحدة من هذه المراتب مقامات كثيرة: فإن بعض البهائم أشرف من بعض، وذلك لقبول التأدب، لأن الفرس وإنما شُرف على الحمار لقبوله الأدب، وكذلك في البازي فضيلة على الغراب.

وإذا تأملت الحيوان كله وجدت القابل للتأدب الذي هو أثر النطق، أعني النفس الناطقة، أفضل من سائرهم، وهو يتدرج في ذلك إلى أن يصير إلى الحيوان الذي هو في أفق الإنسان، أعني الذي هو أكمل البهائم وهو في أخس مرتبة الإنسانية، وذلك أن أخس الناس هو من كان قليل العقل قريباً من البهيمة، وهم القوم الذين في أقاصي الأرض المعمورة، وسكان آخر ناحية الجنوب والشمال لا ينفصلون عن القروء إلا بشيء قليل من التمييز، وبذلك القدر يستحقون اسم "الإنسانية"، ثم يتميزون ويتزايدون في هذا المعنى حتى يبلغوا إلى وسط الأقاليم، ويعتدل فيهم المزاج القابل لصورة العقل، فيصير فيهم العاقل التام والمميز العالم. ثم يتفاضلون في هذا المعنى أيضاً إلى أن يصيروا إلى غاية ما يمكن للإنسان أن يبلغ إليه من قبول قوة العقل والنطق، فيصير حينئذ في الأفق الذي بين الإنسان والملك، ويصير فيهم القابل للوحي والمطيع لحمل الحكمة، فتفيض عليه قوة العقل ويسبح إليه نور الحق ولا حالة للإنسان أعلى من هذه ما دام إنساناً.

ثم ارجع القهقري إلى النظر في الرتبة الناقصة التي هي أدون مراتب الإنسان، فإنك تجد القوم الذين تضعف فيهم القوة الناطقة، وهم القوم الذين ذكرنا، أنهم في أفق البهائم

تقوى فيهم النفس البهيمية، فيميلون إلى شهواتها المأخوذة بالحواس كالمأكل والمشروب والملبوس، وسائر النزوات الشبيهة بها.

وهؤلاء هم الذين تجذبهم الشهوات القوية بقوة نفوسهم البهيمية حتى يرتكبوها ولا يرتدعوا عنها، وبقدر ما يكون فيهم من القوة العاقلة يستحيون منها حتى يستتروا بالبيوت ويتواروا بالظلمات، إذا هموا بلذة تخصهم. وهذا الحياء منهم هو الدليل على قبحها، فإن الجميل بالإطلاق هو الذي يتظاهر به ويستحب إخراجه وإذاعته، وهذا القبح ليس بشيء أكثر من النقصانات اللازمة للبشر، وهي التي يشتاقون إلى إزالتها، وأفحشها هو أنقصها، وأنقصها أحوجها إلى الستر والدفن. ولو سألت القوم الذين يعظمون أمر اللذة، ويجعلونها الخير المطلوب والغاية الإنسانية: لِمَ تكتمون الوصول إلى أعظم الخيرات عندكم؟ وما بالكم تعدون موافقتها خيراً ثم تسترونها، وترون سترها وكتمانها فضيلة ومروءة وإنسانية، والمجاهرة بها وإظهارها بين أهل الفضل وفي مجامع الناس خساسة وقحة؟ تظهر

من انقطاعهم وتبلدهم في الجواب ما نتعلم به سوء مذهبهم وخبث سيرتهم، وأقلهم حظاً من الإنسانية إذا رأى إنساناً فاضلاً احتشمه ووقره، وأحب أن يكون مثله، إلا الشاذ منهم الذي يبلغ من خساسة الطبع ونزارة الإنسانية ووقاحة الوجه، إلى أن يقيم على نصرته ما هو عليه من غير محبة لرتبة من هو أفضل منه.

10. فائدة التماس الفضيلة، واجتناب النقيصة

فإذا يجب على العاقل أن يعرف ما ابتلى به الإنسان من هذه النقائص التي في جسمه، وحاجاته الضرورية إلى إزالتها وتكميلها، فأما بالغذاء فالذي يحفظ به اعتدال مزاجه وقوام حياته فينال منه قدر الضرورة في كماله، ولا يطالب اللذة لعينها بل قوام الحياة التي تتبعه اللذة، فإن تجاوز ذلك قليلاً فبقدر ما يحفظ رتبته في مروءته، ولا ينسب إلى الدناءة والبخل بحسب حاله ومرتبته بين الناس. وأما باللباس فالذي يدفع به أذى الحرّ والبرد ويستتر العورة، فإن تجاوز ذلك فبقدر ما لا يستحقر ولا ينسب إلى الشح على نفسه، وإلى أن يسقط بين أقرانه وأهل طبقته، وأما بالجماع فالذي يحفظ نوعه وتبقى به صورته، أعني طلب النسل، فإن تجاوز ذلك فبقدر ما لا يخرج به عن السُنّة ولا يتعدى ما يملكه إلى ما يملكه غيره.

ثم يتلمس الفضيلة في نفسه العاقلة التي بها صار إنساناً، وينظر إلى النقائص التي في هذه النفس خاصة، فيروم تكميلها بطاقته وجهده، فإن هذه الخيرات هي التي لا تستر، وإذا

وصل إليها لا يمنع عنها الحياء ولا يتوارى عنها بالحيطان والظلمات، ويتظاهر بها أبداً بين الناس وفي المحافل، وهي التي يكون بها بعض الناس أفضل من بعض، وبعضهم أكثر إنسانية من بعض. ويغذو هذه النفس بغذائها الموافق لها المتمم لنقصانها، كما يغذوا تلك بأغذيتها الملائمة لها، فإن غداء هذه هو العلم والزيادة في المعقولات، والارتياض بالصدق في الآراء وقبول الحق حيث كان ومع من كان، والنفور من الكذب والباطل كيف كان ومن أين جاء.

فمن اتفق له في الصبا أن يُربّي على أدب الشريعة، ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها، ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين، ثم ينظر في الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان فلا يسكن إلا إليها، ثم يتدرج كما رسمناه في كتابنا الموسوم "بترتيب السعادات ومنازل العلوم" حتى يبلغ إلى أقصى مرتبة الإنسان فهو السعيد الكامل، فليكثر حمد الله تعالى على الموهبة العظيمة والمنة الجسمية.

ومن لم يتفق له ذلك في مبدأ نشوئه، ثم ابتلى بأن يربيه والده على رواية الشعر الفاحش وقبول أكاذيبه، واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبائح ونيل اللذات، كما يوجد في شعر امرؤ القيس والنابغة وأشباههما ثم صار بعد ذلك إلى رؤساء يقربونه على روايتها وقول مثلها، ويجزلون له العطية. وامتنح بأقران يساعدونه على تناول اللذات الجسمانية، ومال طبعه إلى الاستكثار من المطاعم والملابس والمراكب والزينة وارتباط الخيل الفره والعبيد الروقة، كما اتفق لي مثل ذلك في بعض الأوقات، ثم انهمك فيها واشتغل بها عن السعادة التي هو أهل لها، فليعد جميع ذلك شقاء لا نعيماً وخسراناً لا ربحاً! وليجتهد على التدرج إلى فطام نفسه منها، وما أصعب ذلك، إلا أنه على كل حال خير من التمادي في الباطل.

وليعلم الناظر في هذا الكتاب أنني خاصة تدرجت إلى فطام نفسي بعد الكبر واستحكام العادة، وجاهدتها جهاداً عظيماً، ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل والطالب للأدب الحقيقي بما رضيت لنفسي، بل تجاوزت في النصيحة لك إلى أن أشرت عليك بما فاتني في ابتداء أمري، لتدركه أنت، ودلتك على طريق النجاة قبل أن تتيه في مفاوز الضلالة، وقدمت لك السفينة قبل أن تغرق في بحر المهالك. فالله الله في نفوسكم معاشر الإخوان والأولاد! استسلموا للحق، وتأدبوا بالأدب الحقيقي لا المزور، وخذوا الحكمة البالغة وانتهجوا الصراط المستقيم، وتصوروا حالات أنفسكم وتذكروا قواها.

11. الإنسان، والملك والسبع والخنزير!

واعلموا إن أصح مثل ضرب لكم من نفوسكم الثلاث التي مر ذكرها في المقالة الأولى، مثل ثلاثة حيوانات مختلفة جمعت في مكان واحد: ملك وسبع وخنزير، فأياها غلب بقوته قوة الباقين كان الحكم له. وليعلم من تصور هذا المثل إن النفس لما كانت جوهرًا غير جسم، ولا شيء فيها من قوى الجسم وأعراضه، كما بينا ذلك في صدر هذا الكتاب، كان اتحادها واتصالها بخلاف اتحاد الأجسام واتصال بعضها ببعض. وذلك أن هذه الأنفس الثلاث إذا اتصلت صارت شيئاً واحداً، ومع أنها تكون شيئاً واحداً فهي باقية التغير وباقية القوى، تثور الواحدة بعد الواحدة، حتى كأنها لم تتصل بالأخرى ولم تتحد بها، وتستجدي أيضاً الواحدة للأخرى حتى كأنها غير موجودة ولا قوة لها تنفرد بها. وذلك أن اتحادها ليس بأن تتصل نهايتها ولا بأن تتلاقى سطوحها، كما يكون ذلك في الأجسام بل تصوير في بعض الأحوال شيئاً واحداً، وفي بعض الأحوال أشياء مختلفة، بحسب ما تهيج قوة بعضها أو تسكن.

ولذلك قال قوم: إن النفسَ واحدةٌ ولها قوى كثيرةٌ. وقال آخرون بل هي واحدة بالذات، كثيرة بالعرض وبالموضوع. وهذا شيء يخرج الكلام فيه عن غرض الكتاب، وسيمر بك في موضعه، وليس يضرک في هذا الوقت أن تعتقد أي هذه الآراء شئت، بعد أن تعلم أن بعض هذه كريمة أدبية بالطبع، وبعضها مهينة عادمة للأدب بالطبع، وليس فيها استعداد لقبول الأدب، وبعضها عادمة للأدب إلا أنها تقبل التأديب وتنقاد التي هي أدبية.

أما الكريمة الأدبية بالطبع "فالنفس الناطقة"، وأما العادمة للأدب، وهي مع ذلك غير قابلة له، فهي "النفس البهيمية"، وأما التي عدمت الأدب، ولكنها تقبله وتنقاد له، فهي "النفس الغضبية"، وإنما وهب الله تعالى لنا هذه النفس خاصة لنستعين بها على تقويم البهيمية التي لا تقبل الأدب. وقد شبه القدماء الإنسان وحاله في هذه الأنفس الثلاث بإنسان راكب دابة قوية، ويقود كلباً أو فهداً للقنص، فإن كان الإنسان من بينهم هو الذي يروض دابته وكلبه يصرفهما ويطيعانه في سيره وتصيده وسائر تصرفاته، فلا شك في رغد العيش المشترك بين الثلاثة وحسن أحواله، لأنَّ الإنسان يكون مرفهاً في مطالبه، يجري فرسه حيث يحب وكما يحب، ويطلق كلبه أيضاً كذلك، فإذا نزل واستراح أراحهما معه وأحسن القيام عليهما في المطعم والمشرب وكفاية الأعداء وغير ذلك من مصالحهما. وإذا كانت البهيمية هي الغالبة ساءت حال الثلاثة، وكان الإنسان مضعوفاً عندهما فلم تطع فارسها وغلبت، فإن عشباً من بعيد عدت نحوه وتعسفت في عدوها، وعدلت عن الطريق النهج، فاعترضتها الأودية والوهاد والشوك والشجر فتقحمتها وتورطت فيها، ولحق

فارسها ما يلحق مثله في هذه الأحوال فيصيبهم جميعاً من أنواع المكاره والإشراف على الهلكة ما لا خفاء فيه.

وكذلك إن قوي الكلب لم يطع صاحبه، فإن رأى من بعيد صيداً أو ما يظنه صيداً أخذ نحوه. فجذب الفارس وفرسه. ولحق الجميع من الضرر والضرر أضعاف ما ذكرناه. وفي تصور هذا المثل الذي ضربه القدماء تنبيه على حال هذه النفوس، ودلالة على ما وهبه الله عز وجل للإنسان ومكنه منه وعرضه له، وما يضيّعه بعصيان خالقه تعالى فيه عند إهمال السياسة، واتباعه أمر هاتين القوتين وتعبدته لهما. وهما اللتان ينبغي أن تتبعاه بتأمره عليهما، فمن أسوأ حالاً ممن أهمل سياسة الله عز وجل، وضيّع نعمته عليه وترك هذه القوى فيه هائجة مضطربة تتغالب، وصار الرئيس منها مرؤوساً، والملك منها مستعبداً، يتقلب معهما في المهالك حتى تتمزق ويتمزق معها هو أيضاً؟ نعوذ بالله من الانتكاس في الخلق الذي سببه طاعة الشيطان واتباع الأبالسة، فليست الإشارة بها إلى غير هذه القوى التي وصفناها ووصفنا أحوالها.

نسأل الله عصمته ومعونته على تهذيب هذه النفوس، حتى تنتهي فيها إلى طاعة الله التي هي نهاية مصالحنا وبها نجاتنا وخلصنا إلى الفوز الأكبر والنعيم السرمدي.

12. سياسة النفس العاقلة

وقد شبّه الحكماء من أهمل سياسة نفسه العاقلة، وترك سلطان الشهوة يستولي عليها، برجل معه ياقوتة حمراء شريفة لا قيمة لها من الذهب والفضة جلاله ونفاسته، وكان بين يديه نار تضطرم فرماها في حباحبها (شررها) حتى صارت ككساً (حجراً محروقاً) لا منفعة فيها فخرت، فخر ضروب منافعها.

فقد علمنا الآن أن النفس العاقلة إذا عرفت شرف نفسها، وأحست بمرتبتها من الله عز وجل، أحسنت خلافته في ترتيب هذه القوى وسياستها، ونهضت بالقوة التي أعطاها الله تعالى إلى محلها من كرامة الله تعالى، ومنزلتها من العلو والشرف، ولم تخضع "للسبعية"، ولا "البهيمية"، بل تقوّم النفس "الغضبية"، التي سميناها سبعية، وتقودها إلى الأدب بحملها على حسن طاعتها، ثم تستنهضها في أوقات هيجان هذه النفس البهيمية وحركتها إلى الشهوات، حتى يجمع بهذه سلطان تلك، وتستخدمها في تأديبها وتستعين بقوة هذه على تأييد تلك، وذلك أن هذه النفس الغضبية قابلة للأدب، قوية على قمع الأخرى كما قلنا، وتلك النفس البهيمية عادمة للأدب غير قابلة له. وأما النفس "الناطقة"، أعني "العاقلة"،

فهي كما قال أفلاطون بهذه الألفاظ، أما هذه فبمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأما تلك فبمنزلة الحديد في الصلابة والامتناع، فإن أنت آثرت الفعل الجميل في وقت، وجاذبتك القوة الأخرى إلى اللذة وإلى خلاف ما آثرت، فاستعن بقوة الغضب التي تثير وتهيج بالأنفة والحمية، واقهر بها النفس البهيمية، فإن غلبتك مع ذلك ثم ندمت وأنفت فأنت في طريق الصلاح فتمم عزيمة واحذر أن تعاودك بالطمع فيك والغلبة لك، فإن لم تفعل ذلك ولم تكن العقبي في الغلبة لك كنت كما قال الحكيم الأول:

"إني أرى أكثر الناس يدعون محبة الأفعال الجميلة، ثم لا يحتملون المؤونة فيها على علمهم بفضلها، فيغلبهم الترفه ومحبة البطالة، فلا يكون بينهم وبين من لا يحب الأفعال الجميلة فرق إذا لم يحتملوا مؤونة الصبر ويصبروا إلى تمام ما آثروه وعرفوا فضله. واذكر مثل البئر التي تردى فيها الأعمى والبصير فيكونان في الهلكة سواء إلا أن الأعمى أعذر".

ومن وصل من هذه الآداب إلى مرتبة يعتد بها واكتسب بها الفضائل التي عددناها، فقد وجب عليه تأديب غيره وإفاضة ما أعطاه الله تعالى على أبناء جنسه.

13. فصل في تأديب الأحداث والصبيان خاصة

نقلتُ أكثره من كتاب بريسن (Bryson) مفكر وفيلسوف يوناني له كتاب "مختصر كتاب الأخلاق لجالينوس" و"كتاب تأديب الأحداث والصبيان"

قد قلنا في ما تقدم: إن أول قوة تظهر في الإنسان، أول ما يتكون، هي القوة التي يشترك بها إلى الغذاء الذي هو سبب كونه حياً، فيتحرك بالطبع إلى اللبن، ويلتسمه من الثدي الذي هو معدنه من غير تعليم ولا توقيف، ويحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذي هو مادته، ودليله الذي يدل به على اللذة والأذى. ثم تتزايد فيه هذه القوة ويتشوق بها أولاً إلى الازدياد، والتصرف بها في أنواع الشهوات، ثم تحدث فيه قوة على التحرك نحوها بالآلات التي تخلق له، ثم يحدث له التشوق إلى الأفعال التي تحصل له هذه ثم يحدث له من الحواس قوة على تخيل الأمور ويرتسم في قوته الخيالية مثالات فيتشوق إليها، ثم تظهر فيه قوة الغضب التي يشترك بها إلى دفع ما يؤذيه، ومقاومة ما يمنعه من منفعه، فإن أطاق بنفسه أن ينتقم من مؤذياته انتقم منها، وإلا التمس معونة غيره وانتصر بوالديه بالتصويت والبكاء.

ثم يحدث له الشوق إلى تمييز الأفعال الإنسانية خاصة أولاً أولاً، حتى يصير إلى كماله في هذا التمييز، فيسمى حينئذ عاقلاً. وهذه القوى كثيرة وبعضها ضروري في وجود الأخرى، إلى أن ينتهي إلى الغاية الأخيرة، وهي التي لا تتراد لغاية أخرى، وهو الخير المطلق الذي يتشوقه الإنسان من حيث هو إنسان، فأول ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء، وهو الخوف من ظهور شيء قبيح منه. ولذلك قلنا: إن أول ما ينبغي أن يتفرس في الصبي ويستدل به على عقله الحياء، فإنه يدل على أنه قد أحسَّ بالقبيح، ومع إحساسه به هو يحذره ويتجنبه، ويخاف أن يظهر منه أو فيه. فإذا نظرت إلى الصبي فوجدته مستحياً مطرفاً بطرفه إلى الأرض، غير وقاح الوجه ولا محقق اليك، فهو أول دليل نجابته، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح، وأن حياءه هو انحصار نفسه خوفاً من قبيح يظهر منه، وهذا ليس بشيء أكثر من إثارة الجميل والهرب من القبيح بالتمييز والعقل، وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تهمل ولا تترك، ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة، وإن كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة، فإن نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة، ولا لها رأي وعزيمة تميلها من شيء إلى شيء، فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها.

14. دستور تهذيب الأطفال

فالأولى بمثل هذه النفس أن تنبه أبدأً على حب الكرامة، ولا سيما ما يحصل له منها بالدين دون المال، وبلزوم سننه ووظائفه، ثم يمدح الأختيار عنده ويمدح هو في نفسه إذا ظهر شيء جميل منه، ويخوف من المذمة على أدنى قبيح يظهر منه، ويؤاخذ باشتائه للمآكل والمشرب والملابس الفاخرة، ويزين عنده خلف النفس والترفع عن الحرص في المآكل خاصة وفي اللذات عامة.

ويحبب إليه إثارة غيره على نفسه بالغذاء والاقتصار على الشيء المعتدل والاقتصاد في التماسه. ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللاتي يتزينن للرجال ثم العبيد والخول (العبيد والإماء)، وإن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه، حتى إذا تربى على ذلك وسمعه من كل من يقرب منه وتكرر عليه، ولم يترك ومخالطة من سمع منه ضد ما ذكرته، لا سيما من أترابه ومن كان في مثل سنه ممن يعاشره ويلعبه. وذلك أن الصبي في ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الأفعال، إما كلها وإما أكثرها، فإنه يكون كذوباً ويخبر ويحكي ما لم يسمعه ولم يره، ويكون حسوداً سروقاً تماماً لجوجاً ذا فضول أضر شيء بنفسه وبكل أمر يلابسه ثم لا يزال به التأديب والسنن

والتجارب حتى يتنقل في أحوال بعد أحوال، فلذلك ينبغي أن يؤاخذ ما دام طفلاً بما ذكرناه ونذكره.

ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرى ما تعوده بالأدب، حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة بها جميع ما قدمنا ذكره، ويحذر النظر في الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله، وما يوهمه أصحابه أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع، فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جداً، ثم يمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل حسن ويكرم عليه، فإن خالف في بعض الأوقات ما ذكرته فالأولى أن لا يوبخ عليه، ولا يكشف بأنه أقدم عليه بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله ولا هم به، لا سيما أن ستره الصبي واجتهد في أن يخفي ما فعله عن الناس، فإن عاد فليوبخ عليه سراً وليعظم عنده ما أتاه، ويحذر من معاودته فإنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة، حملته على الوقاحة وحرضته على معاودة ما كان استقبحه، وهان عليه سماع الملامة في ركوب قبائح اللذات التي تدعو إليها نفسه، وهذه اللذات كثيرة جداً.

15. أدب المطاعم

والذي ينبغي أن يبدأ به في تقويمها أدب المطاعم، فيفهم أولاً أنها إنما تتراد للصحة لا اللذة، أن الأغذية كلها إنما خلقت وأعدت لنا لتصح بها أبداننا وتصير مادة لحياتنا، فهي تجري مجرى الأدوية يداوي بها الجوع والألم الحادث منه، فكما أن الدواء لا يرام للذة ولا يستكثر منه للشهوة، فكذلك الأطعمة ما ينبغي أن يتناول منها إلا ما يحفظ صحة البدن، ويدفع ألم الجوع ويمنع من المرض، فيحقر عنده قدر الطعام الذي يستعظمه أهل الشره، ويقبح عنده صورة من شره إليه، وينال منه فوق حاجة بدنه أو ما لا يوافق حتى يقتصر على لون واحد، ولا يرغب في الألوان الكثيرة.

وإذا جلس مع غيره لا يبادر إلى الطعام ولا يديم النظر إلى ألوانه، ولا يحدق إليه شديداً ويقتصر على ما يليه، ولا يسرع في الأكل ولا يوالي بين اللقم بسرعة، ولا يعظم اللقمة ولا يبتلعها حتى يجيد مضغها، ولا يلطخ يده ولا ثوبه، ولا يلحظ من يؤاكله ولا يتبع بنظره مواقع يده من الطعام، ويعود أن يؤثر غيره بما يليه، إن كان أفضل ما عنده، ثم يضبط شهوته حتى يقتصر على أدنى الطعام وأدونه، ويأكل الخبز القفار (القليل) الذي لا آدم معه في بعض الأوقات.

وهذه الآداب، وإن كانت جميلة بالفقراء، فهي بالأغنياء أفضل وأجمل وينبغي أن يستوفي غذاءه بالعشي، فإن استوفاه بالنهار كسل واحتاج إلى النوم وتلبد فهمه مع ذلك، وإن منع اللحم في أكثر أوقاته كان أنفع له وقعاً في الحركة والتيقظ، وقلة البلادة وبعثه على النشاط والخفة، وأما الحلواء والفاكهة فينبغي أن يمتنع منها البتة إن أمكن، وإلا فليتناول أقل ما يمكن فإنها تستحيل في بدنه فتكثر انحلاله، وتعوده مع ذلك على الشره ومحبة استكثار من المآكل، ويعود أن لا يشرب في خلال طعامه الماء، فأما النبيذ وأصناف الأثرية المسكرة فإياه وإياها، فإنها تضره في بدنه ونفسه وتحمل على سرعة الغضب والتهور، والإقدام على القبائح والقحة (الجفاء) وسائر الخلال المذمومة.

ولا ينبغي أن يحضر مجالس أهل الشرب إلا أن يكون أهل المجلس أدباء فضلاء، وأما غيرهم فلا أفرق لئلا يسمع الكلام القبيح والسخافات التي تجري فيه، وينبغي أن لا يأكل حتى يفرغ من وظائف الأدب التي يتعلمها، ويتعب تعباً كافياً، وينبغي أن يمنع من كل فعل يستره ويخفيه، فإنه ليس يخفي شيئاً إلا وهو يظن أو يعلم أنه قبيح، ويمنع من النوم الكثير فإنه يقبحه ويغلظ ذهنه ويميت خاطره، هذا بالليل فأما بالنهار فلا ينبغي أن يتعوده البتة، ويمنع أيضاً من الفراش الوطيء وجميع أنواع الترفه حتى يصلب بدنه ويتعود الخشونة، ولا يتعود الخيش والأسراب في الصيف، ولا الأوبار والنيران في الشتاء للأسباب التي ذكرناها، ويعود المشي والحركة والركوب والرياضة حتى لا يتعود أضعافها.

16. أدب الملابس

ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع في المشي ولا يرخي يديه، بل يضمهما إلى صدره، ولا يربي شعره ولا يزين بملابس النساء، ولا يلبس خاتماً إلا وقت حاجته إليه، ولا يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والده، ولا بشيء من مآكله وما يجري مجراه، بل يتواضع لكل أحد ويكرم كل من عاشره، ولا يتوصل بشرف إن كان له أو سلطان من أهله إن اتفق إلى غضب من هو دونه، أو استهداء من لا يمكنه أن يرده عن هواه أو تطاوله عليه، كمن اتفق له إن كان خاله وزيراً أو عمه سلطاناً، فتطرق به إلى هزيمة أقرانه وثلم إخوانه واستباحة أموال جيرانه ومعارفه.

17. أدب المجالس

وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجالسه ولا يتمخط ولا يتثائب بحضرة غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضرب تحت ذقنه بساعده، ولا يعمد رأسه بيده، فإن هذا دليل

الكسل، وأنه قد بلغ به التقبيح إلى أن لا يحمل رأسه حتى يستعين بيده، ويعود أن لا يكذب ولا يحلف البتة لا صادقاً ولا كاذباً، فإن هذا قبيح بالرجال مع الحاجة إليه في بعض الأوقات، فأما الصبي فلا حاجة به إلى اليمين، ويعود أيضاً الصمت وقلة الكلام، وأن لا يتكلم إلا جواباً وإذا حضر من هو أكبر منه اشتغل بالاستماع منه والصمت له.

ويمنع من خبيث الكلام وهجينه، ومن السب واللعن ولغو الكلام، ويعود حسن الكلام وظريفه، وجميل اللقاء وكريمه، ولا يرخص له أن يستمع لأضدادها من غيره، ويعود خدمة نفسه ومعلمه وكل من كان أكبر منه.

وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب أولاد الأغنياء والمترفين. وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يصرخ ولا يستشفع بأحد، فإن هذا فعل المماليك ومن هو خوار ضعيف، ولا يعير أحداً إلا بالقبيح السيء من الأدب. ويعود أن لا يوحش الصبيان بل يبرهم ويكافئهم على الجميل بأكثر منه لئلا يتعود الربح على الصبيان وعلى الصديق. ويبغض إليه الفضة والذهب ويحذر منهما أكثر من تحذير السباع والحيات والعقارب والأفاعي. فإن حب الفضة والذهب آفته أكثر من آفة السموم. وينبغي أن يؤذن له في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً، ليستريح إليه من تعب الأدب، ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم.

وهذه الآداب النافعة للصبيان وهي للكبار من الناس أيضاً نافعة ولكنها للأحداث أنفع لأنها تعودهم محبة الفضائل وينشؤون عليها، فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل، ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة وتحده الشريعة والسنة، ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة، وتكفهم عن الانهماك في شيء منها والفكر الكثير فيها، وتسوقهم إلى مرتبة الفلسفة العالية وترقيهم إلى معالي الأمور التي وصفناها في أول الكتاب من التقرب إلى الله عز وجل، ومجاورة الملائكة مع حسن الحال في الدنيا، وطيب العيش وجميل الأحداث، وقلة الأعداء وكثرة المداح والراغبين في مودته من الفضلاء خاصة، فإذا تجاوز هذه الرتبة وبلغ أيامه إلى أن يفهم أغراض الناس وعواقب الأمور، فهم أن الغرض الأخير من هذه الأشياء التي يقصدها الناس ويحرصون عليها من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل والفرش وأشباه ذلك، إنما هو ترفيهه البدن وحفظ صحته، وأن يبقى على اعتداله مدة ما، وأن لا يقع في الأمراض ولا تفجؤه المنية وأن يتهنأ بنعمة الله عليه ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية، وأن اللذات كلها بالحقيقة هي خلاص من آلام وراحات من تعب.

فإذا عرف ذلك وتحققه، ثم تعود به بالسير الدائمة عود الرياضات التي تحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفي الكسل، وتطرد البلادة وتبعث النشاط، وتذكي النفس، فمن كان ممولا مترفاً كانت هذه الأشياء التي رسمتها أصعب عليه، لكثرة من يحتف به ويغويه، ولموافقة طبيعة الإنسان في أول ما تنشأ هذه اللذات، وإجماع جمهور الناس على نيل ما أمكنهم منه، وطلب ما تعذر عليهم بغاية جهدهم، فأما الفقراء فالأمر عليهم أسهل بل هم قريبون إلى الفضائل، قادرون عليها متمكنون من نيلها والإصابة منها. وحال المتوسطين بين هاتين الحالتين.

وقد كان ملوك الفرس الفضلاء لا يربون أولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفاً عليهم من الأحوال التي ذكرناها، ومن سماع ما حذرت منه. وكانوا ينفذونهم مع ثقاتهم إلى النواحي البعيدة منهم، وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش ومن لا يعرف التمتع ولا الترفه، وأخبارهم في ذلك مشهورة، وكثير من رؤساء الديلم في زماننا هذا ينقلون أولادهم عندما ينشؤون إلى بلادهم، ليتعودوا بها هذه الأخلاق ويبعدوا عن الفتح وعادات أهل البلدان الرديئة.

وإذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة في تأديب الأحداث، فقد أعرفك أضرارها، أعني أن من نشأ على خلاف هذا المذهب والتأديب لم يرج فلاحه، ولا ينبغي أن يشتغل بصلاحه وتقويمه، فإنه قد صار بمنزلة الخنزير الوحشي الذي لا يطمع في رياضته، فإن نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية، ولنفسه الغضبية فهي منهمة في مطالبها من النزوات، وكما أنه لا سبيل إلى رياضة سباع البهائم الوحشية التي لا تقبل التأديب، كذلك لا سبيل

إلى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها وأمعن قليلاً في السن، اللهم إلا أن يكون في جميع أحواله عالماً بقبح سيرته، ذاماً لها عائباً على نفسه عازماً على الإقلاع والإنابة، فإن مثل هذا الإنسان من يرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدرج، والرجوع إلى الطريقة المثلى بالتوبة وبمصاحبة الأخيار وأهل الحكمة، وبالإكباب على التفلسف.

وإذا قد ذكرنا الخلق المحمود وما ينبغي أن يؤخذ به الأحداث والصبيان فنحن واصفون جميع القوى التي تحدث للحيوان أولاً أولاً إلى أن ينتهي إلى أقصى الكمال في الإنسانية، فإنك شديد الحاجة إلى معرفة ذلك لتبتدئ على الترتيب الطبيعي في تقويم واحد واحد منها فنقول:

18. التفاوت في تقبل الآثار الشريفة

إن الأجسام الطبيعية كلّها تشترك في الحد الذي يعمها، ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التي تحدث فيها، فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس، صار بها أفضل من الطينة الأولى التي لا تقبل تلك الصورة، فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد. وتلك الزيادة هي الاغتذاء والنمو والامتداد في الأقطار، واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء، وترك ما لا يوافقه ونفض الفضول التي تتولد فيه من غذائه عن جسمه بالصموغ، وهذه هي الأشياء التي ينفصل بها النبات من الجماد، وهي حال زائدة على الجسمية التي حددناها وكانت حاصلة في الجماد.

19. ما يُشرف به النبات على الجماد

وهذه الحالة الزائدة في النبات التي شرف بها على الجماد تتفاضل، وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان وأشباهه، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء، فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر، ولا يحفظ نوعه بالثمر والبزر، ويكفيه في حدوثة امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس، فلذلك هو في أفق الجمادات وقريب الحال منها، ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب، حتى تظهر فيه قوة الإثمار وحفظ النوع بالبزر الذي يخلف به مثله، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله، ثم تقوى هذه الفضيلة حتى يصير فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الأول، ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ إلى أفقه، ويصير في أفق الحيوان وهي كرام الشجر: كالزيتون والرمان والكرم، وأصناف الفواكه إلا أنها بعد مختلطة القوى، أعني أن قوى ذكورها وإناثها غير متميزة، فهي تحمل وتلد المثل، ولم تبلغ غاية أفقها الذي يتصل بأفق الحيوان، ثم تزداد وتمعن في هذا الأفق إلى أن تصير في أفق الحيوان، فلا تحتل زيادة؛ وذلك أنها إن قبلت زيادة يسيرة صارت حيواناً، وخرجت عن أفق النبات، فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة، وتقبل من فضائل الحيوان أموراً تتميز بها عن سائر النبات والشجر، كالنخل الذي طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها، ولم يبق بينه وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة، وهي الانقلاع من الأرض والسعي إلى الغذاء.

وقد روي في الخبر ما هو كالإشارة أو كالرمز إلى هذا المعنى، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "أكرموا عمّتكم النَّخل فإنها خلقت من بقية طين آدم". فإذا تحرك النبات وانقلع

من أفقه وسعى إلى غذائه ولم يتقيد في موضعه إلى أن يصير إليه غذاؤه، وكونت له آلات أخر يتناول بها حاجاته التي تكمله فقد صار حيوانا.

20. التدرج في قبول الفضائل

وهذه الآلات تتزايد في الحيوان من أول أفقه وتتفاضل فيه، فيشرف فيه بعضها على بعض، كما كان ذلك في النبات، فلا يزال يقبل فضيلة بعد فضيلة، حتى تظهر فيه قوة الشعور باللذة والأذى، فيلتذ بوصوله إلى منافعه ويتألم بوصول مضاره إليه، ثم يقبل إلهام الله عز وجل إياه فيتهدي إلى مصالحه فيطلبها، وإلى أضراده فيهرب منها.

وما كان من الحيوان في أول أفق النبات فإنه لا يتزوج، ولا يختلف المثل بل يتولد كالديدان والذباب وأصناف الحشرات الخسيسة ثم يتزايد فيه قبول الفضيلة كما كان في النبات سواء، ثم تحدث فيه قوة الغضب التي ينهض بها إلى دفع ما يؤذيه، فيعطى من السلاح بحسب قوته وما يطبق استعماله، فإن كانت قوته الغضبية شديدة كان سلاحه تاماً قوياً، وإن كانت ناقصة كان ناقصاً، وإن كانت ضعيفة جداً لم يعط سلاح البتة، بل أعطي آلة الهرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التي تنجيه من مخاوفه.

وأنت ترى ذلك عياناً من الحيوان الذي أعطي القرون التي تجري له مجرى الرياح، والذي أعطي الأنياب والمخالب التي تجري له مجرى السكاكين والخناجر، والذي أعطي آلة الرمي التي تجري له مجرى النبل والنشاب، والذي أعطي الحوافر التي تجري له مجرى الدبوس والطبرزين، فأما من لم يعط سلاحاً لضعفه عن استعماله ولقلة شجاعته ونقصان قوته الغضبية، ولأنه لو أعطيه لصار كلا عليه، فقد أعطي آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة، والختل والمراوغة كالأرانب وأشباهها، وإذا تصفحت أحوال الموجودات من السباع والوحش والطير رأيت هذه الحكمة مستمرة فيها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فأما الإنسان فقد عوض من هذه الآلات كلها بأن هدي إلى استعمالها كلها، وسخرت هذه كلها له، وسنتكلم على ذلك في موضعه. فأما أسباب هذه الأشياء كلها والشكوك التي تعترض في قصد بعضها بعضاً بالتلف والأنواع من الأذى، فليس يليق بهذا الموضوع، وسأذكرها إن أحر الله في الأجل عند بلوغنا إلى الموضوع الخاص بها.

21. مراتب الحيوان

ونعود إلى ذكر مراتب الحيوان فنقول: إن ما اهتدى منها إلى الازدواج وطلب النسل وحفظ الولد، وتربيته والإشفاق عليه بالكن والعش واللباس، كما نشاهد في ما يلد ويبيض، وتغذيته إما باللبن وإما بنقل الغذاء إليه، فإنه أفضل ممّا لا يهتدي إلى شيء منها، ثم لا تزال هذه الأحوال تتزايد في الحيوان حتى يقرب من أفق الإنسان، فحينئذ يقبل التأدب ويصير بقبوله للأدب ذا فضيلة يتميز بها عن سائر الحيوانات.

ثم تتزايد هذه الفضيلة في الحيوانات حتى يشرف بها ضروب الشرف كالفرس والبازي المعلم، ثم يصير من هذه المرتبة إلى مرتبة الحيوان الذي يحاكي الإنسان من تلقاء نفسه، ويتشبه به من غير تعليم كالقروود وما أشبهها، ويبلغ من ذكائها أن تكتفي في التأدب بأن ترى الإنسان يعمل عملاً فتعمل مثله، من غير أن تحوج الإنسان إلى تعب بها ورياضة لها. وهذه غاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه، وصار في أفق الإنسان الذي يقبل العقل والتميز والنطق، والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها. فإذا بلغ هذه الرتبة تحرك إلى المعارف واشتاق إلى العلوم، وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل يقتدر بها على الترقى والإمعان في هذه الرتبة، كما كان ذلك في المراتب الأخرى التي ذكرناها.

22. مراتب الأفق الإنساني

وأول هذه المراتب من الأفق الإنساني المتصل بآخر ذلك الأفق الحيواني مراتب الناس الذين يسكنون في أقاصي المعمورة من الشمال والجنوب: كأواخر الترك من بلاد يأجوج ومأجوج، وأواخر الزنج وأشباههم من الأمم التي لا تميز عن القروود إلا بمرتبة يسيرة، ثم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم، فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل. وإلى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله عز وجل بالمحسوسات، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالإرادة والسعي والاجتهاد الذي ذكرناه في ما تقدم، حتى يصل إلى آخر أفقه، فإذا صار إلى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة، وهذا أعلى مرتبة الإنسان.

وعندها تتحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها، وهو الذي يسمى دائرة الوجود، لأن الدائرة هي التي قيل في حدها: إنها خط واحد يبتدئ بالحركة من نقطة وينتهي إليها بعينها،

ودائرة الوجود هي المتأحدة التي جعلت الكثرة وحدة، وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على وحدانية موجدتها وحكمته وقدرته وجوده، تبارك اسمه تعالى جده، وتقديسه ذكره.

ولولا أن شرح هذا الموضوع لا يليق "بصناعة تهذيب الأخلاق"، لشرحته وأنت تقف عليه إن بلغت هذه الرتبة بمشيئة الله. وإذا تصورت قدراً ما أو ماناً إليه وفهمته اطلعت على الحالة التي خلقت لها وندبت إليها، وعرفت الأفق الذي يتصل بأفئك، وتنقلك في مرتبة بعد مرتبة، وركوبك طبقاً عن طبق. وحدث لك الإيمان الصحيح، وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهاء، وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكنونة التي مبدؤها تعلم المنطق، فإنه الآلة في تقويم الفهم والعقل الغريزي، ثم الوصول به إلى معرفة الخلائق وطباعتها، ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها إلى العلوم الإلهية. وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله (عز وجل) وعطاياه، فيأتيك الفيض الإلهي فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية، وتلحظ المرتبة التي ترقيت فيها أولاً فأولاً من مراتب الموجودات.

وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما قبلها في وجودها، وعلمت أن الإنسان لا يتم له كماله، إلا بعد أن يحصل له ما قبله، وأنه إذا صار إنساناً كاملاً وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه، وصار حكيماً تاماً تأتيه الإلهامات في ما يتصرف فيه من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية في التصورات العقلية. وإما نبياً مؤيداً يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره، فيكون حينئذ واسطة بين المملأ الأعلى والمملأ الأسفل، وذلك بتصوره حال الموجودات كلها، والحال التي ينتقل إليها من حال الإنسيّة، مطالعة الآفاق التي ذكرناها، وحينئذ يفهم عن الله عز وجل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وتصور معنى قول رسول الله ﷺ: " **هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**".

وإذا بلغ بنا الكلام إلى ذكر هذه المنزلة العالية الشريفة التي أهل الإنسان لها، ونسقنا أحواله التي يترقى فيها، وأنه يكون أولاً بالشوق إلى المعارف والعلوم فينبغي أن يزيد في بيانه وشرحه فنقول:

23. غاية الكمال والسعادة التامة

إنّ هذا الشوق ربما ساق الإنسان على منهج قويم وقصد صحيح، حتى ينتهي إلى غاية كماله، وهي سعادته التامة، وقلّما يتفق ذلك، وربما اعوجج به عن السمت والسُنن، وذلك لأسباب كثيرة يطول ذكرها، ولا حاجة بك إلى علمها الآن وأنت في تهذيب خلقك.

فكما أن الطبيعة المدبرة للأجسام ربما شوقت إلى ما ليس بتمام للجسم الطبيعي، لعل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشواق إلى أكل الطين وما جرى مجراه مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده، كذلك أيضاً النفس الناطقة ربما اشتاقت إلى النظر والتميز الذي لا يكلمها ولا يشوقها نحو سعادتها، بل يحركها إلى الأشياء التي تعوقها وتقتصر بها عن كمالها، فحينئذ يحتاج إلى علاج نفساني روحاني، كما أحتاج في الحالة الأولى إلى طب طبيعي جسماني.

ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنفعين، وإلى المؤدبين والمسددين، فإن وجود تلك الطبائع الفائقة التي تنساق بذاتها من غير توفيق إلى السعادة عسرة الوجود، لا توجد إلاّ في الأزمنة الطوال والمدد البعيدة وهذا الأدب الحق الذي يؤدنا إلى غايتنا يجب أن نلحظ فيه المبدأ الذي يجري مجرى الغاية، حتى إذا لحظت الغاية تدرج منها إلى الأمور الطبيعية على طريق التحليل، ثم يبتدئ من أسفل على طريق التركيب، فيسلك فيها إلى أن ينتهي إلى الغاية التي لحظت أولاً: وهذا المعنى هو الذي أحوجنا في مبدأ هذا الكتاب وفي فصول آخر منه أن نذكر أشياء عالية، لا تليق بهذه الصناعة ليتشوق إليها من يستحقها، وليس يمكن الإنسان أن يشواق إلى ما لا يعرفه البتة، فإذا لحظها من فيه قبول لها وعناية بها عرفها بعض المعرفة، فتشوقها وسعي نحوها واحتمل التعب والنصب فيها.

وينبغي أن يعلم كل إنسان مُعد نحو الفضيلة ما، فهو إليها أقرب، وبالوصول إليها أخرى، ولذلك ما تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر إلا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة، فينتهي إلى غايات الأمور وإلى غاية غاياتها، أعني السعادة القصوى التي لا سعادة بعدها، ولأجل ذلك يجب على مدبر المدن أن يسوق كل إنسان نحو سعادته التي تخصه، ثم يقسم عنايته بالناس ونظره لهم بقسمين: أحدهما في تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية، والآخر في تسديدهم نحو الصناعات والأعمال الحسية. وإذا سددهم نحو السعادة الفكرية بدأ بهم من الغاية الأخيرة على طريق التحليل، ووقف بهم عند القوى التي ذكرناها. وإذا سددهم نحو السعادة العملية بدأ بهم من عند هذه القوى وانتهى بهم إلى تلك الغايات.

خاتمة المقالة الثانية:

ولما كان غرضنا في هذا الكتاب السعادة الخُلُقِيَّة وأن تصدر عنا الأفعال كلّها جميلة كما رسمناه في صدر الكتاب، وعملناه لمحبي الفلسفة خاصة لا للعوام، وكان النظر يتقدم العمل وجب أن نذكر الخير المطلق والسعادة الإنسانية لتلحظ الغاية الأخيرة، ثم تطلب بالأفعال الإرادية التي ذكرنا جملها في المقالة الأولى.

وأرسطو طاليس إنما بدأ كتابه (علم الأخلاق إلى نيقوماخوس) بهذا الموضوع وافتتحه بذكر الخير المطلق، ليعرف ويتشوق، ونحن نذكر ما قاله ونتبعه بما أخذناه أيضاً عنه في مواضع أُخر، ليجتمع ما فرقه ونضيف إلى ذكر ما أخذناه عن مفسري كتبه والمتقبلين لحكمته نحو استطاعتنا، والله الموفق المؤيد، فإنّ الخير بيده، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

[من كتاب: "تهذيب الأخلاق" لمسكويه، صفحة: 263-304]

إحياء
للتنمية الأخلاقية



Ihyae
Ethics Development



/IhyaeFoundation

جميع الحقوق محفوظة © 2019